

بسم الله الرحمن الرحيم

شرح رياض الصالحين

شرح حديث النواس بن سمعان -رضي الله عنه- "البر حسن الخلق" وحديث عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما- "لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَاحِشًاً وَلَا مُنْفَحَشًا"

الشيخ/ خالد بن عثمان السبط

الحمد لله، والصلوة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فمما أورده المصنف -رحمه الله- في باب "حسن الخلق" حديث النواس بن سمعان -ويقال أيضاً بالكسر: سمعان -رضي الله تعالى عنه وأرضاه- قال: "سألت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن البر والإثم؟ فقال: ((البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في نفسك، وكرهت أن يطلع عليه الناس))^(١)"، رواه مسلم.

هذا الحديث تقدم في باب "الورع"، والشاهد هناك هو قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس))، والذي يتصل بهذا الباب هو قوله -صلى الله عليه وسلم- حينما سأله النواس -رضي الله تعالى عنه- عن البر والإثم؟ فقال: ((البر حسن الخلق)).

البر يقال للطاعة والمعروف، فالبر كلمة جامعة هي من أجمع الألفاظ في دلالتها، حيث إنها تدل على طاعة الله -عز وجل-، ومحابيه، ومراضيه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، كل هذا يقال له: بر، أعمال القلوب: الإيمان بر ، الخوف من الله بر ، محبة الله -عز وجل- بر ، الكرم بر ، الحياة بر ، وكذلك أيضاً الصلاة بر ، والصيام بر ، والأذان بر ، والصدقة بر ، كل هذا من البر، كما قال الله -عز وجل-: {وَلَكُنَّ الْبَرُّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّنَ وَاتَّى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذُوِي الْقُرْبَىِ وَالْيَتَامَىِ وَالْمَسَاكِينَ} [البقرة: ١٧٧] الآية، فجمع هذه الأمور -أصول الإيمان-، وأيضاً الإنفاق في سبيل الله مع إقام الصلاة إلى آخر ما ذكر الله -تبارك وتعالى-، فهذا هو البر، كل معروف فهو من البر، كل شيء هو طاعة فهو من البر، فسأله عن البر فقال: ((البر حسن الخلق))، يعني أن عامة البر م ضمن في حسن الخلق، وهذا يدل على قيمة الخلق، وعظم منزلته، وذلك أن الإنسان إذا كانت أخلاقه حسنة فإنه يسلم من كثير من الآفات، ويحمله ذلك على كثير من المعروف.

الحياة من البر، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((الحياة لا يأتي إلا بخير))^(٢)، فإذا كان الإنسان عنده حياة مثلاً فإن ذلك يحجزه عن مواقعة ما لا يليق، يستحيي من الله، يستحيي من خلق الله، وكذلك أيضاً يستحيي من نفسه، كما هو الشأن في أهل المروءات، وكذلك أيضاً إذا كان عنده حياة فإنه يؤدي الحقوق، إذا كان الإنسان يتحلى بحسن الخلق فإنه يطيب كلامه، وتحسن فعله، وتكون معاشرته لينة هينة طيبة فلا يسمع منه إلا القول الجميل، ولا يصدر منه إلا الفعل الجميل، هكذا الأخلاق الحسنة، فقال: ((البر حسن الخلق، والإثم ما

١ - أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تفسير البر والإثم، برقم (٢٥٥٣).

٢ - أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب الحياة، برقم (٦١١٧)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب شعب الإيمان، برقم (٣٧).

حـاـك فـي نـفـسـك وـكـرـهـت أـن يـطـلـع عـلـيـه النـاسـ))، وـذـلـك يـكـون بـالـنـسـبة لـلـنـفـوـسـ الـتـي لـا زـالـت فـطـرـتـهـ حـيـةـ، وـالـقـلـوبـ الـتـي لـا زـالـت حـيـةـ، أـمـا الـقـلـب إـذـا كـان مـيـتـاـ وـالـفـطـرـةـ قـد طـمـسـتـ فـإـنـ الإـنـسـانـ لـا يـحـيـيـ فـي نـفـسـهـ ذـلـكـ، بـلـ يـتـبـجـ بالـمـنـكـرـ وـالـفـاحـشـةـ، وـالـمـعـصـيـةـ، وـلـرـيمـا يـفـخـرـ بـذـلـكـ فـيـ الـمـجـالـسـ، أـمـا الـذـي يـتـلـجـلـجـ فـيـ نـفـسـهـ -حـاـكـ يـعـنيـ تـرـدـدـ يـتـرـدـدـ فـيـ نـفـسـهـ هـلـ هـذـا أـمـرـ جـيـدـ أـوـ غـيـرـ جـيـدـ، هـلـ يـجـوزـ أـوـ لـاـ يـجـوزـ، وـلـاـ يـرـيدـ أـنـ النـاسـ يـطـلـعـونـ عـلـىـ أـنـهـ فـعـلـهـ أـوـ تـعـالـمـ بـهـذـاـ النـوـعـ مـنـ الـمـعـالـمـةـ، أـوـ نـحـوـ ذـلـكـ فـهـذـاـ هـوـ الإـثـمـ وـهـوـ إـرـشـادـ لـلـوـرـعـ فـيـ الـوـاقـعـ، وـإـلـاـ فـإـنـ الإـثـمـ أـوـسـعـ مـنـ هـذـاـ، يـعـنيـ أـكـلـ الـرـبـاـ هـذـاـ مـاـ يـحـيـيـ فـيـ نـفـسـ هـذـاـ وـاـضـحـ، سـرـقـةـ أـمـوـالـ النـاسـ هـذـاـ كـلـهـ مـنـ الـأـمـورـ الـمـحـرـمةـ الـوـاضـحةـ، لـكـ الـمـشـتـبـهـاتـ هـيـ التـيـ تـرـدـدـ فـيـ نـفـوـسـ.

ثـمـ ذـكـرـ الـحـدـيـثـ الـآـخـرـ حـدـيـثـ عـبـدـ الـلـهـ بـنـ عـمـرـ بـنـ الـعـاصـ -رـضـيـ اللـهـ تـعـالـىـ عـنـهـمـاـ- قـالـ: لـمـ يـكـنـ رـسـولـ اللـهـ -صـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ- فـاحـشـاـ وـلـاـ مـتـفـحـشـاـ، وـكـانـ يـقـولـ: ((إـنـ مـنـ خـيـارـكـ أـحـسـنـكـ أـخـلـاـقـاـ))^(٣)، مـتـقـقـ عـلـيـهـ.

الـفـحـشـ هـوـ مـاـ عـظـمـ قـبـحـهـ مـنـ القـوـلـ وـالـفـعـلـ، "لـمـ يـكـنـ فـاحـشـاـ": يـعـنيـ لـمـ يـكـنـ ذـلـكـ سـجـيـةـ وـخـلـفـاـ وـعـادـةـ لـهـ -صـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ-، حـاشـاهـ مـنـ ذـلـكـ، لـمـ يـكـنـ ذـلـكـ مـنـ أـخـلـاـقـهـ وـسـجـاـيـاهـ وـمـاـ جـبـلـ عـلـيـهـ، وـالـمـتـفـحـشـ هـوـ الـذـيـ يـتـكـلـفـ الـتـفـحـشـ، يـعـنيـ مـنـ النـاسـ مـنـ يـكـونـ طـبـعـهـ الـفـحـشـ، يـتـكـلـمـ بـالـفـحـشـ، وـهـذـاـ الـذـيـ يـصـدـرـ مـنـهـ، وـيـسـتـغـرـبـ مـنـهـ خـلـافـ ذـلـكـ، وـالـنـاسـ لـاـ يـسـتـطـيـعـونـ مـقـارـيـتـهـ وـلـاـ مـعـالـمـتـهـ وـلـاـ مـخـاصـمـتـهـ وـلـاـ مـحاـوـرـتـهـ؛ لـأـنـ فـاحـشـ مـاـ تـدـرـيـ مـاـ يـأـتـيـكـ مـنـهـ، يـرـسـلـ لـسـانـهـ فـيـ الـكـلـامـ الـقـبـحـ وـرـمـيـ النـاسـ وـقـذـفـهـ وـالـوـقـيـعـةـ بـهـمـ بـكـبـارـ الـقـوـلـ مـنـ الـفـحـشـ وـالـمـنـكـرـ.

"لـاـ مـتـفـحـشـاـ" لـمـ يـكـنـ يـتـصـنـعـ ذـلـكـ وـيـتـكـلـفـهـ، يـعـنيـ مـنـ النـاسـ مـنـ قـدـ يـرـىـ الـآـخـرـينـ وـلـاـ سـيـماـ أـنـهـ يـرـىـ أـحـيـانـاـ مـنـ يـظـنـ أـنـهـ قـدـوـةـ، وـهـذـاـ لـلـأـسـفـ يـوـجـدـ فـيـ بـعـضـ الـبـيـئـاتـ، قـدـ يـكـوـنـ هـذـاـ الـقـدـوـةـ قـدـوـةـ باـعـتـبـارـ أـنـهـ وـالـدـ، أـوـ باـعـتـبـارـ أـنـهـ أـحـيـانـاـ رـجـلـ لـهـ وـجـاهـةـ، وـأـحـيـانـاـ يـكـوـنـ هـذـاـ مـنـ أـهـلـ الـعـلـمـ، فـيـ حـاـكـيـهـ تـلـمـذـتـهـ وـالـطـبـعـ لـصـ، الـطـبـعـ سـرـاقـ، أـحـيـانـاـ قـدـ تـجـدـ فـيـ بـعـضـ الـبـيـئـاتـ، قـدـ تـجـدـ فـيـ بـعـضـ أـهـلـ الـعـلـمـ، وـقـدـ يـكـوـنـ مـنـ الـعـلـمـاءـ فـعـلـاـ، قـدـ تـسـتـغـرـيـوـنـ هـذـاـ لـكـنـهـ مـوـجـودـ: الـمـزـاحـ عـنـهـمـ بـالـلـعـنـ، وـبـيـنـكـ يـاـ اـبـنـ كـذـاـ، هـذـاـ يـمـزـحـ مـعـهـ، وـفـيـ لـجـنـةـ الـمـنـاقـشـةـ، فـيـ مـنـاقـشـةـ مـاجـسـتـيرـ أـوـ دـكـتوـرـاهـ فـيـ الـقـاعـةـ أـمـامـ الـنـاسـ يـقـولـ لـلـطـالـبـ: أـنـتـ وـالـشـيـخـ شـيـخـ يـعـنيـ - يـاـ اـبـنـ الـكـلـبـ، وـالـطـالـبـ يـبـتـسـمـ وـيـضـحـكـ وـالـشـيـخـ يـضـحـكـ؛ لـأـنـ هـذـاـ الشـيـخـ الـكـبـيرـ جـدـاـ هـذـهـ السـبـةـ وـالـلـعـنـةـ مـنـهـ تـعـتـبـرـ وـسـامـ شـرـفـ فـيـ نـظـرـهـ أـوـ نـحـوـ ذـلـكـ، يـلـقـاهـ هـذـاـ عـنـ بـابـ الـمـسـجـدـ وـهـوـ خـارـجـ وـهـذـاـ دـاـخـلـ أـهـلـاـ أـنـتـ فـيـنـكـ يـاـ اـبـنـ كـذـاـ، بـلـ يـقـولـ عـنـ نـفـسـهـ هـوـ، أـحـيـانـاـ قـدـ يـنـاقـشـ أـوـ يـعـطـيـ كـتـابـاـ فـيـ قـضـيـةـ تـتـعـلـقـ بـالـعـقـيـدـةـ أـوـ نـحـوـ ذـلـكـ وـالـرـجـلـ قـدـ يـكـوـنـ نـشـأـ عـلـىـ عـقـيـدـةـ الـأـشـاعـرـةـ أـوـ كـذـاـ، فـيـقـالـ لـهـ: هـاـ مـاـ رـأـيـكـ، مـاـ الـكـلـامـ هـذـاـ؟ـ فـيـقـولـ: تـبـيـنـ إـحـنـاـ اـبـنـ كـذـاـ، يـقـولـ عـنـ نـفـسـهـ، فـالـفـحـشـ أـحـيـانـاـ يـكـوـنـ هـذـاـ نـسـأـلـ اللـهـ الـعـافـيـةـ، يـعـنيـ أـحـيـانـاـ قـدـ يـحـصـلـ الـإـنـسـانـ كـثـيـرـاـ مـنـ الـعـلـمـ بـلـاـ تـرـبـيـةـ، وـلـذـلـكـ مـثـلـ هـذـاـ إـذـاـ خـالـطـتـهـ أـوـ صـارـ لـكـ أـدـنـىـ تـعـالـمـ مـعـهـ وـنـحـوـ ذـلـكـ مـاـ تـدـرـيـ مـاـ يـأـتـيـكـ مـنـهـ، قـذـائـفـ مـنـ الـكـلـامـ الـفـاحـشـ الـبـذـيـعـ، وـبعـضـهـمـ قـدـ يـفـعـلـ ذـلـكـ فـيـ مـجـالـسـهـ الـخـاصـةـ، يـعـنيـ يـبـتـسـطـ، وـيـكـوـنـ الـحـدـيـثـ مـنـ السـرـةـ إـلـىـ الرـكـبـةـ -أـعـزـكـمـ اللـهـ-، وـهـذـاـ قـدـ تـجـدـهـ فـيـ بـعـضـ مـنـ يـنـتـسـبـ

٣ - أـخـرـجـهـ الـبـخـارـيـ، كـتـابـ الـمـنـاقـبـ، بـابـ صـفـةـ الـنـبـيـ -صـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ-، بـرـقـمـ (٣٥٥٩)، وـبـرـقـمـ (٦٠٢٩)، فـيـ كـتـابـ الـأـدـبـ، بـابـ لـمـ يـكـنـ النـبـيـ -صـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ- فـاحـشـاـ وـلـاـ مـتـفـحـشـاـ، وـمـسـلـمـ، كـتـابـ الـفـضـائـلـ، بـابـ كـثـرـةـ حـيـائـهـ -صـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ-، بـرـقـمـ (٢٣٢١).

إلى دين أو من ينتمي إلى علم، قد يوجد، فإذا وجد من التلاميذ من يسمع مثل هذا الكلام أحياناً فإنه قد يتقمص ويختلف هذه الأشياء باعتبار أنه ينافي منه، ويعجب به، وأنه ما صدر منه ذلك إلا أن هذه الأمور لا إشكال فيها، وبعضهم قد يجد بعض العبارات في بعض الترجم، ترجم بعض من يقتدى بهم، أحياناً قد يوجد، وقد يوجد في أشعارهم من القذف والإلقاء بالقول، وقد يكون هذا البيت ينتمي إلى إنسان، انظروا في الدواوين المنسوبة لبعض من ينتمي إلى دين أو نحو ذلك، قد تجد في بعضها أشياء من هذا القبيل، فيتقىصها أحياناً الناظر فيها من باب إحسان الظن، أنه يحسن الظن بهذا، فيختلف مثل هذه الأشياء، فتجري على لسانه، فهذا من تعلم الفحش أحياناً بطرق قد تكون غير متوقعة، وهو موجود وحاصل ومشاهد، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- لم يكن فاحشاً ولا متقحشاً، وكان يقول: ((إن من خياركم أحسنكم أخلاقاً))، يعني هذا على سبيل العموم، خيار المسلمين أحسنهم أخلاقاً، ولا غرابة، وستأتي الأحاديث التي تدل على أن الإنسان يبلغ بحسن الخلق درجة الصائم الذي لا يفتر والقائم الذي لا يفتر، والله أعلم.

وصلى الله على نبينا محمد، وآلـه وصحبه.